الباب السادس

إمام المدينة والسنة

obeikandl.com

الباب السادس

إمام المدينة والسلطان

"إذا رأيت من سلطانك ما لا يوافق العلم فاذكر ذلك، مع طاعتك إياه، فإن يده أقوى من يدك".

(أبو حنيفة)

كانت المدينة مصدر الخطر على خلفاء الدولتين الأموية والعباسية، ومنها خرج على الخلافة آل البيت من أبناء علي رضي الله تعالى عنهم، وكان رضاها أملا لأولي الأمر، ورضي إمامها أول الأمل. وفقه مالك فقه الحياد في الفتن. وطاعة ولي الأمر – وكان مالك أموي الهوى لأكثر من سبب، فلما غلبت الدولة العباسية على الأمر، توسل به أبو جعفر إلى المدينة وإلى الأمة، ومع ذلك لم يسلم مالك من أذى أميره على المدينة وابن عمه، ولم ينقطع الخلفاء عن الجلوس إلى مالك هم وأولياء عهدهم على ما سنبين في الفصلين التاليين.

الفصل الأول

طاعة الإمام

جاءت الدولة العباسية وليدة تطور مكنت له انتصارات الجند الوافد من خراسان لنصرة الضرير من أهل البيت، فلما نصرهم الله ولي قائدهم أبو مسلم الخراساني الأمور وجهة عباسية، فبايع أبا العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، وأخلت دمشق المكان للكوفة، واستبدل أهل المدينة قسوة تستغلظ وتتأجج بقسوة كانت قد فترت. وأنزلت الدولة الجديدة صعقاتها ببني أمية، فلم يكذب أبو العباس أملا للشاعر سديف عندما ناداه:

ارفع السيف وامنع العفو حتى لا ترى فوق وجهها أمويا

استأمنه سليمان بن هشام بن عبد الملك وابناه في نحو ثمانين رجلا من بني أمية، فأمنهم، ثم أعمل السيوف فيهم، فقتلوا جميعا! وقتل عمه عبد الله بن علي عدة آلاف، منهم من قتلوا وهم يطعمون طعامهم! وهرب من المذبحة غلام لمعاوية بن هشام اسمه عبد الرحمن، فوصل في مهربه إلى الأندلس فملكه أهلها فقامت دولة كبرى لبني أمية، تقدم في عواصمها وبخاصة قرطبة، حضارة الإسلام لكل أوروبة، وتبذر بذور نهضة أوروبة في الحضارة المعاصرة، وتجعل مذهب مالك المذهب الوحيد الذي تعترف دول الأندلس به في كل تاريخها، وتؤدي له العون، من كل وجه، برجالها ووسائلها، حتى غربت شمس العرب من أسبانيا، وبقيت فيها حضارتهم.

وكانت البطشات في دمشق والشام تحدث الأصداء في كل الأرجاء، فتتلاقى في دار الهجرة التي تصدر عنها تعاليم السنة وأولها التسامح والعفو وتفد إليها الأنباء دفقا مع القوافل، أو في المؤتمر العام الذي يعقده المسلمون في موسم الحج كل عام.

ولقبت الأمة الخليفة الجديد بالسفاح ونعتت بذلك عمه عبد الله بن علي.

استدعى عبد الله بن علي الأوزاعي إمام الشام (١٥٧) وعبد الله في جنده شاكي السلاح فتحاورا حوار الفقه والبطش بين الحديد والدم.

قال: ما تقول في دم بني أمية؟

قال: فقد كانت بينك وبينهم عهود، وكان ينبغي أن تفوا بها.

قال عبد الله: ويحك. اجعلني وإياهم لا عهد بيننا. ويقول الأوزاعي: "فأجهشت نفسي، وكرهت القتل، فذكرت مقامي بين يدي الله، فلفظتها "دماؤهم عليك حرام" فغضب وانتفخت عيناه وأوداجه.

فقال: ويحك لم؟

قلت: قال رسول الله ﷺ: "لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث. ثيب زان. ونفس بنفس. وتارك لدينه".

قال: ويحك: أوليس الأمر لنا ديانة؟

أليس كان رسول الله ﷺ أوصى لعلي؟

قلت لو أوصى إليه ما حكم الحكمين.

فسكت. وقد اجتمع غضبا وجعلت أتوقع رأسي يسقط بين يدي فقال... أخرجوه، فخرجت.

كان أبو جعفر أخا السفاح الأكبر، لكن أمه لم تكن عربية، فولى السفاح الخلافة،وعمل المنصور لأخيه في سباق البطش بإخلاص! أعطى أمانا ليزيد بن هبيرة الوالي السابق لبني أمية فلما استسلم لم يلبث أن قتله بأمر أبي العباس!! وأسرعت المنية بالسفاح إلى بارئه يوفيه حسابه، فتولى المنصور نيفا وعشرين عاما وضع فيها أساس الدولة الجديدة وشاد بغداد.

ودارت دائرة السوء على عبد الله فخرج على أبي جعفر فحبس ليخر عليه البيت ويقتل.

ودارت دائرة أبي جعفر على قائده المظفر، أبي مسلم الخراساني بعد أن أمنه، فقتله!!

وخرج عيسى بن زيد "بن علي بن الحسين" فقتل بين الكوفة وبغداد.

* * *

أدرك أبو جعفر "المنصور" غليان مراجل المدينة، وقصد إليها في موسم الحج سنة ١٤٤، فلم يأته محمد بن عبد الله بن... الحسن بن علي الذي سمته الأمة بالنفس الزكية، ولم يأت أخوه إبراهيم، فوضع عليهما العيون فأعجزاه هربا، فبعث إلى أبيهما مالك بن أنس واحدا من سفيرين طالبين أن يسلم محمدا وإبراهيم وكان سودان المدينة قد ثاروا في شوال سنة ١٤٤ لما ينزله الولاة بالمدينة من قسوة، وهرب الوالي وترضاهم مواليهم، الذين ثاروا لهم، مخافة النقمة المنتظرة من أبي جعفر.

ولم تفلح سفارة مالك عند عبد الله بن الحسن بل هو رفض مبدأ المفاوضة مع السفراء قال: لا. والله لا أرد عليكما حرفا. إن أحب أن يأذن لي فألقاه فليفعل.

ورفض اللقاء أبو جعفر. فلقد كانت في عنقه بيعة لمحمد.

ففي أواخر أيام بني أمية، اجتمع إبراهيم بن محمد بن علي وأبو جعفر، وصالح بن علي، ممثلين لبني العباس، مع عبد الله بن الحسن وابنيه محمد وإبراهيم ممثلين لبني علي، ليختاروا من يبايعون، فبايعوا محمدا، وأبو جعفر يومئذ أشد الناس حماسا، وكان يلبس قباء أصفر، يوم ذاك، فلقبه الناس صاحب القباء الأصفر، وحج مع محمد، وتقدم يمسك ركابه ويقول: هذا مهدينا أهل البيت.

ولما ولي السفاح قرب عبد الله بن الحسن ودعاه إلى الكوفة، أما أبو جعفر فكانت في عنقه بيعة فنقضها، وحبس عبد الله وبقية أهله في بيت وطين عليهم ليموتوا بداخله بعد.

خرج محمد النفس الزكية في رجب سنة ١٤٥ من المدينة على أبي جعفر، وتبعه أعيان المدينة، وعزل عنها عثمان بن رباح أميرها من قبل المنصور، وشده، وفتح أبواب السجون، وعين على المدينة عاملا وقاضيا،وخرج معه ابن هرمز وهو شيخ هرم، قيل له: والله ما فيك شئ! قال على ما يروي عنه تلميذه مالك: قد علمت ولكن يراني جاهل فيقتدي بي.

وكتب أبو جعفر إلى محمد يقول: "ولك على عهد الله وميثاقه وذمة الله وذمة رسوله. إن تبت ورجعت من قبل أن أقدر عليك أن أؤمنك وأسوغك ما أصبت من دم ومال وما سألت من الحوائج.. وأطلق من في حبسي من أهل بيتك".

وكتب إليه محمد: "وأنا أعرض عليك من الأمان مثلما عرضت علي. فإن الحق حقنا.. وأنا أولى بالأمر منك وأوفى بالعهد، لأنك أعطيتني من الأمان والعهد ما أعطيت رجالا قبلي، فأي الأمانات تعطيني؟ أمان ابن هبيرة، أو أمان عمك عبد الله، أو أمان أبي مسلم"؟

وخرج إبراهيم أخو محمد فاستولى على البصرة، ومادت الأرض تحت أقدام أبي جعفر، لكن النصر حالف أعلامه، فقتل محمد في ١٤ رمضان سنة ١٤٥ وأرسل المنصور رأسه إلى المدينة يطاف بها على طبق، وقتل إبراهيم عند باخمري في ذي القعدة، فقال شعبة بن الحجاج – الملقب بأمير المؤمنين في الحديث – عن وقعة باخمري: والله لهي عندي بدر الصغرى، وجئ بابن هرمز إلى عيسى بن موسى قائد الجيوش المنتصرة فقال له: يا شيخ – أما وزعك فقهك عن الخروج؟ قال: كانت فتنة شملت الناس فشملتنا... فعفا عنه.

ورجع إلى المدينة مائة من المنهزمين فقتلوا واليها الذي أوثقه محمد، واشتعلت نيران الكراهية في أهلها.. سألت امرأة عن أخيها الذي لم يرجع من هذه الحرب، فقيل لها: قتل، فخرت ساجدة. قيل: أتسجدين أن قتل أخوك؟ قالت: أليس لم يفر ولم يؤسر؟ وألبس أبو جعفر المدينة لباس الجوع والفزع، فأمر بالبحر فأقفل عليهم، فلم يحمل عليهم من ناحية البحار شئ من التجارة أو الطعام، حتى كان المهدي ففتح وأذن بالحمل إليهم، فكان قوت المدينة قبل ذلك يجيئها من الصحراء.

واستحكمت بينها وبين أبي جعفر أزمة الثقة، فقاربها مقاربة سياسية بتولية الحسن بن زيد بن الحسن بن علي عليها راح يقاربها مقاربة علمية، وسياسية معا، عند مالك بن أنس، سفيره السابق للسلام.

* * *

لكن ريب الليالي كان لمالك بالمرصاد، فلم يكن من طبائع الأمور أن تمر به الأحداث كلمى، دون أن يصيبه منها أذى، ولو يسير، أو أزمة مع الدولة، ولو محلية، والحلقة عاملة ناصبة لا تكف عن القيام بدورها في التحديث بحديث الرسول وسننه، فرفع الوشاة عنها إلى والي المدينة جعفر بن سليمان "ابن عم أبي جعفر المنصور" أن شيخها لا يرى أيمان بيعتكم بشئ – لأنه يحدث بحديث "طلاق المكره لا يجوز".

ودس الوالي إلى الحلقة من يسأل الشيخ في مجلس الدرس فحدث على رؤوس الأشهاد أن "رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه"، وأن "ليس على مكره يمين" وهو أصل من الأصول لا يتزعزع واقترنت الفتوى في الأذهان بخروج محمد وإبراهيم ونقض الناس بيعتهم لأبي جعفر.

روى الطبري عن الواقعة "أن مالك بن أنس استفتى في الخروج مع محمد بن عبد الله بن الحسن وقيل له إن في أعناقنا بيعة لأبي جعفر فقال: "إنما بايعتم مكرهين. وليس على مكره يمين". فأسرع الناس إلى محمد ولزم مالك بيته".

وأمسى سهلا على الكارهين لمالك أن يدسوا، وعلى الخائفين من أبي جعفر أن يتوهموا، وعلى الأمير الوافد من الميدان، تتراقص في خياله رؤى الحرب، مع محمد وإبراهيم، وكان الأمير من قواد جيش عيسى بن موسى، أن تتناهى به سورة البطش ونشوة الظفر، فيرى التحديث بهذا الأصل الديني مسوغا عند الناس لنقض بيعة أخذت منهم بالأيمان المغلظة وبالفزع الأكبر، فدعا بمالك، فجرد وضرب بالسياط، أوجع ضرب، من ثلاثين إلى مائة سوط، حتى انخلعت كتفه.

قال ابن وهب: وحمل على بعير للتشهير، فكان يقول: ألا من عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني فأنا مالك بن أنس بن أبي عامر الأصبحي، وأنا أقول: طلاق المكره ليس بشئ... فبلغ ذلك الأمير. فقال: أدركوه، أنزلوه.

وتأثرت يد مالك بالضرب، فبقى لا يستطيع أن يرفعها، ولا أن يسوي رداءه، قال الدراودري: سمعته يقول حين ضربه: اللهم اغفر لهم. فإنهم لا يعلمون.

لكنه كما يعبر ابن قتيبة تعبيره، العصري أبدا، لم يزل بعد هذا الضرب في علو ورفعة، وكأنما كانت هذه السياط حليا حلي به!

ولا جرم إن من العمل في الدين أن يؤذى المرء في سبيل دينه، أو الإمام من أجل تعاليمه، وكان احتمال الأذى درسا من دروس مالك للأمة وللأئمة.

وليس غريبا أن يصفح الأمير عيسى بن موسى عن ابن هرمز أو يصفح جعفر بن سليمان عن محمد بن عجلان الذي خرج معه مع محمد إذ قيل له عن علمه وورعه إنه في المدينة كالحسن البصري في البصرة، في حين يضرب مالك، فضرب مالك أريد به إيقاع الرعب في القلوب، والرعب لا يبلغ غرضه إلا بضرب الرؤوس، ومالك هو الإمام والزعيم، جدير في شرعة البطش بأن يضرب حتى إذا لم يخرج بل ولو كان الحديث حقيقة علمية لا يتمارى فيها اثنان.

وليس غريبا كذلك أن يبقى مالك، فلا يخرج مع محمد، فلقد لزم ابن أبي ذئب (٨٠ – ١٥٩) "محمد بن عبد الرحمن بن المغيرة بن الحارث بن أبي ذئب" داره فلم يخرج وكان من أشد العلماء في نصح الخلفاء.

وأبرد البريد إلى أمير المؤمنين في بغداد فجزع لأن مقاربته لمالك في السنوات العشر المنصرمة على بدء خلافته قد أصابها ابن عم فيه حمق، ومالك دعامة الاستقرار في المدينة، ورضاه عن حكمه حجة له، فبعث إلى مالك، ليلقاه بمنى في موسم الحج، فلقيه، واعتذر له بكل أنواع الاعتذار، ولم يزل يستدنيه حتى أجلسه وقد لصقت ركبتا مالك بركبته، وحلف له أنه ما أمر بالذي كان، ولا علمه قبل أن يكون،ولا رضيه إذ علمه، وهنا حمد مالك ربه على كل حال وصلى على الرسول ونزه الخليفة عن الأمر بذلك أو الرضا به.

وواصل المنصور كلامه: يا أبا عبد الله ما يزال أهل الحرمين بخير ما كنت بين أظهرهم. وإني أخالك أمانا لهم من عذاب الله وسطوته. ولقد رفع الله بك وقعة عظيمة، فإنهم أسرع الناس إلى الفتن، وأضعفهم عنها، قاتلهم الله أنى يؤفكون، وقد أمرت أن يؤتى بجعفر من المدينة على قتب، وأمرت بضيق محبسه وامتهانه، ولا بد أن أنزل به من العقوبة أضعاف ما نالك منه.

ورد مالك: عافى الله أمير المؤمنين وأكرم مثواه، قد عفوت عنه لقرابته لرسول الله ﷺ وقرابته منك.

ورد المنصور: وأنت عفا الله عنك ووصلك.

* * *

ولو أفتى مالك بالخروج لكان من الثوار، ولحقت عليه العقوبة التي نزلت به، بل ربما استحق أكثر، من خليفة كان يخطب فيقول: "إنما أنا سلطان الله في الأرض أسوسكم بتوفيقه وتسديده، وتأييده، وحارسه على ماله، أعمل فيه بمشيئته وإرادته" فأي شئ لا يشمله بطشه.

لكن أبا جعفر بحنكته السياسية، لم يزد المسألة قيمة كما فعل واليه، ولم ينقصها، فيسكت عن خطيئته، بل بين في لقياه لمالك أنه يعطيه القود منه، وأن مالكا في المدينة عمدته كأداة للهداية والاستقرار.

وازداد الخليفة إليه زلفى، فراح يخاطب شغاف قلبه بمقاربته في فكره وإيمانه بفقهه، فأعلن له حاجته إلى أن يجعل الموطأ كتابا للمسلمين أجمعين، فاتباع الأئمة إيمان بخصائصهم وفيه، من أبي جعفر، باسم المسلمين قاطبة، قصارى المودة.

ولم يجزع الشيخ لما جرى به قدره، ولقد كان يروي للمسلمين وللأئمة موعظة أعيمش بني تيم القاسم بن محمد بن ابي بكر عن جيل الصحابة "أدركت الناس وما يعجبهم القول، إنما يعجبهم العمل" بل يروي قول عمر بن عبد العزيز: لا تغبطوا أحدا لم يصبه في هذا الأمر أذى، وإذا كان مالك وجيها عند الله والناس، فقد صار بعد ضربه أوجه، وكان العلم العظيم بحاجة إلى العمل العظيم، يكلل به مجده – فرزقه الله الفرصة ليكون إماما للأئمة، وليتم به اتباعه للسابقين، وإنما كان يعجبهم العمل.

وأعطى مالك المسلمين وخلفاءهم وولاتهم، درسا جديدا بالعفو – والعفو أقرب للتقوى – مثل درسه في احتمال الأذى ودرسه في حديث رسول الله عن الإكراه، فعلم الشافعي وابن حنبل الصمود عند المحنة فيما تعلماه.

وسبق مالك أبا حنيفة في أذى بني العباس، إذ يموت أبو حنيفة في سنة ١٥٠ بسجن أبي جعفر، بعد ضرب، أو من غير ضرب، وفي العمل الجليل الواحد عظات لا تعد.

* * *

ولا يرد على الذهن أن ضرب مالك كان بأمر من أبي جعفر، إلا أن يجهل المرء حقائق الرجل.

فمالك لم يصنع شيئا ضده، والتحديث العلمي بحديث للرسول في الحلقة، ليس خطيئة، ولا يستطيع الخليفة أن يمنع منه الإمام إلا أن تكون سنة الرسول ضد الخليفة، وبهذا يفقده غضبه على مالك حجته على الأمة.

وأبو جعفر فقيه محدث يعرف هذا الحديث، وفقهه، وله دراسات في أيمان البيعة بطبيعة الحال، ورأيه فيها نقيض لرأي جده الأعلى عبد الله بن عباس[٦٤]. يقول الجاحظ عنه: "كان

---

(٦٤) كانت أيمان البيعة في السبعينات من القرن الأول عندما أخذ الحجاج البيعة لعبد الملك بن مروان، وفي الثلاثينات من القرن الثاني عند البيعة لأبي جعفر مشغلة الخلفاء، في صيغها وإحكام عباراتها، خذ مثلا لإحدى المبايعات "فإن أنتم بدلتم من ذلك شيئا أو غيرتم أو نكثتم أو خالفتم ما أمركم به أمير المؤمنين واشترط عليكم في كتابه هذا. فبرئت منكم ذمة الله وذمة رسوله محمد ﷺ وذمم المؤمنين والمسلمين. وكل مال هو اليوم لكل رجل منكم أو يستفيده إلى خمسين سنة فهو صدقة على المساكين. وعلى كل رجل منكم المشي إلى بيت الله الحرام الذي بمكة، خمسين حجة نذرا واجبا لا يقبل الله منه إلا الوفاء بذلك. وكل مملوك لأحد منكم أو يملكه فيما يستقبل إلى خمسين سنة فهو حر. كل امرأة له فهي طالق ثلاثا البتة، طلاق الحرج لا مثنوية فيها".

وثملا آخر:

"فإن غيرت – فبرئت من الله عز وجل ومن ولايته ودينه ومحمد رسول الله ﷺ ولقيت الله يوم القيامة كافرا مشركا، وكل امرأة هي اليوم أو أتزوجها إلى ثلاثين سنة طالق ثلاثا البتة طلاق الحرج".

حارب الأئمة هذه الأيمان، مالك يقول ليس على مكره يمين، وداود سيقول إن اليمين بغير الله لا قيمة لها ولا تأثير. والشافعي يقول: إن طلاق امرأة لم يتزوجها الإنسان لا تأثير له.

مقدما في علم الكلام ومكثرا من كتاب الآثار. ولكلامه كتاب يدور في أيدي العارفين والوراقين. معروف عندهم". ومالك يقول فيه: ".. ثم فاتحني في العلم والفقه، فوجدته أعلم الناس بما اجتمعوا عليه وأعرفهم بما اختلفوا فيه، حافظا لما روى، واعيا لما سمع".

وأبو جعفر بخيل، كل البخل، بالمال، مقل كل الإقلال في سفك الدم، ولا يضع السيف حيث ينفع الندى، إذا سخا سخا بقدر، وإذا بطش فحيث البطش ضرورة.

ولقد دعا الإمام جعفر الصادق في زيارته للمدينة، عامئذ، يروعه، فجعل الصادق الخالق سبحانه بينه وبينه، وطالبه ببعض ما صادره من أموال أهل بيته، وذكره مسئوليته أما بارئه.

قال أبو جعفر: إياي تهدد بهذا الكلام؟ والله لأزقهن نفسك.

قال الصادق: لا تعجل، فقد بلغت ثلاثا وستين وفيها مات أبي وجدي.

قال المنصور: قد رأيت إطباق أهل المدينة على حربي، قد هممت أن أبعث إليهم من يغور عليهم ويجمر نخلهم.

قال الصادق: يا أمير المؤمنين، إن سليمان أعطي فشكر، وإن أيوب ابتلي فصبر، وإن يوسف قدر فغفر، فاقتد بأيهم شئت، وقد جعلك الله من نسل الذين يعفون ويصفحون.

وتعالى المنصور على الموعظة قال: إن أحدا لا يعلمنا الحلم ولا يعرفنا العلم، وإنما قلت هممت، ولم ترني فعلت، وإنك لتعلم أن قدرتي عليهم تمنعني من الإساءة إليهم.

وآخرون يقولون إنه يجوز لمن حلف أن يستثني من يمينه ولو بعد أيام. فيقول بعد أن يحلف إن شاء الله فلا تكون لليمين قيمة، أما أبو حنيفة فلا يجيز الاستثناء إلا متصلا، ولما حاول الربيع بن يونس حاجب أبي جعفر أن يوقع بينه وبين أبي حنيفة، نسب إليه في مجلس الخليفة أنه يخالف ابن عباس جد أبي جعفر، في قول ابن عباس بتجويز الاستثناء عن اليمين، استثناء منفصلا، بعد يوم أو يومين إلى سنة في قول، وإلى غير حد في قول آخر. وأبو حنيفة لا يجيز الاستثناء إلا متصلا باليمين، ولا يصح إذا كان القول باتا في المجلس، فلم تأخذ أبا حنيفة مفاجأة الربيع فقال: يا أمير المؤمنين إن الربيع يزعم أنه ليس لك في رقاب جندك بيعة. قال كيف؟ قال أبو حنيفة يحلفون لك ثم يرجعون إلى منازلهم فيستثنون فيبطل أيمانهم... وبهت الربيع وضحك أبو جعفر وقال: يا ربيع لا تتعرض لأبي حنيفة، فلقد كان أبو جعفر يتلمس البيعة من كل مكان.

وأبو جعفر في دخيلة نفسه يريد ليقارب المدينة، ويتمنى لو رضي عنه أهل البيت، وأي زلفى كمثل التقرب إلى النبي فيهم! وأي رضى نفسي إذا لقى ذكرى للنبي، كانت دار "الأرقم" على الصفا بمكة هي الدار التي استتر فيها عليه السلام، ودعا الناس إلى الإسلام، وقد تصدق بها الأرقم على ولده، فلم يزل المنصور يرغبهم بالمال حتى باعوه إياها.

* * *

وكما كان أبو جعفر عالما بالحديث، كان لا يخشى النقدة.. بل يقبل النصح العنيف والجدل العاصف – ما دام فيه إخلاص.

قصد إليه عبد الرحمن بن زياد بن أنعم المعافري، من القيروان، وكان زميلا له في طلب العلم، فعرض عليه المقام ببغداد، وقال له: كيف رأيت ما وراء بابنا؟ قال: رأيت ظلما فاشيا وأمرا قبيحا. قال لعله فيما بعد من بابي. فقال: بل كلما قربت استفحل الأمر وغلظ. قال ما يمنعك أن ترفع ذلك إلينا وقولك مقبول عندنا؟ قال: رأيت السلطان سوقا وإنما يرفع إلى كل سوق ما ينفق فيها، قال كأنك كرهت صحبتنا؟ قال ما يدرك المال والشرف إلا من صحبتكم، ولكني تركت عجوزا، وإني أحب مطالعتها.

بل دخل عليه سفيان الثوري (١٦١)، وهو من أتراب مالك، فقال له: اتق الله فقد ملأت الأرض ظلما وجورا، فطأطأ رأسه ثم رفعه وقال: ارفع إلينا حاجتك.

فقال: إنما أنزلت هذه المنزلة بسيوف المهاجرين والأنصار. وأبناؤهم يموتون جوعا. فطأطأ رأسه ثم رفعه وقال: ارفع حاجتك.

فقال: حج عمر بن الخطاب ﷺ فقال للخازن كم أنفقت فقال: بضعة عشر درهما، وأرى هنا أموالا لا تطيق الجمال حملها، ثم خرج.

ولما راجعه حاجبه في شأن سفيان، قال له: اسكت يا أنوك (أحمق). لم يبق على الأرض من يستحى منه غير "مالك" وسفيان.

وذات يوم قال له عمرو بن عبيد: ببابك ألف مظلمة، اردد منها شيئا نعلم أنك صادق.

ولم ادخل عليه عمرو بعد الخلافة، وأراد الانصراف قال له: سل حاجتك. قال: حاجتي ألا تبعث إلي حتى آتيك، وألا تعطيني حتى أسألك.

وسنرى بعد مواقفه من ابن أبي ذئب وابن طاوس.

ولم يك أبو جعفر ليخاف التبعة – لو أمر بضرب مالك، فكم تحمل أبو جعفر من تبعات، أمام الله والناس! لقد قتل عبيده أبا مسلم في مجلسه بتدبير منه! وقتل ابن هبيرة بعد الأمان الذي أعطاه إياه، وحبس عمه ليخر عليه البيت بعد أمان أعطاه إياه[٦٥] وفي محبسه فنى العلويون المحبوسون!

وسيحبس أبا حنيفة فيموت في سجنه.

إنما كان أبو جعفر بحاجة إلى الهدوء في الإمبراطورية التي يحكمها. وفي المدينة التي يخرج منها أصحاب الحق في الخلافة، ومن أجل ذلك احتاج لمالك.

ولقد بلغ بمودته كل السلام، الذي نشده، فلم يخرج منها أحد حتى سنة ١٦٩ بعد موته بعشر سنين، ولما خرج يومذاك الحسين بن... علي، فقتل عند فخ. خرج مغاضبا لأهلها. يقول: "يا أهل المدينة لا أخلف الله عليكم بخير" ويقولون: "بل أنت – لا أخل فالله عليك ولا ردك".

* * *

(٦٥) خرج عبد الله بن علي على ابن أخيه "أبي جعفر المنصور" وأرسل إليه المنصور جيشا بقيادة أبي مسلم، وفر عبد الله إلى أخويه سليمان وعيسى فتوسطا له لدى المنصور، فقبل شفاعتهما واتفقوا على أن يكتبوا له أمانا من المنصور، فكتب عبد الله بن المقفع – وكان كاتبا لعيسى – أمانا فيه "ومتى غدر أمير المؤمنين بعمه عبد الله بن علي فنساؤه طوالق. ودوابه حبس، وعبيده أحرار، والمسلمون في حل من بيعته" وشقت العبارة على أبي جعفر. فأسرها في نفسه، فلما قتله والي أبي جعفر سفيان بن معاوية سر أبو جعفر، وكان عمر ابن المقفع ٣٦ سنة.

أما عمه عبد الله فحبسه سنة ١٣٨ وخر عليه البيت فقتل سنة ١٤٧.

obeikandl.com

الفتنة أشد من القتل:

الحق أن مالكا كان مغنما للدولة الجديدة، لكثير من الأسباب، فهو إلى ما مضى كان أموي الهوى، فموادعته للدولة الجديدة ثبت بجدارتها أكثر من الدولة القديمة، التي لم تعد إلا ذكريات.

وهو إمام السنة، فإذا واجه معه أبو جعفر الأمة واجهها والسنة معه – ومن ثمة أمر ألا يفتي غيره في المدينة، أو أن يفتي هو أو ابن أبي ذؤيب، كما كلف ولاته بابتغاء إقراره لعملهم، وذات يوم رفع أبو جعفر صوته في المسجد، فنهاه مالك فانتهى.

وهذه الأسباب جميعا يسبقها أمر له المنزلة الأولة هو فقه مالك ذاته، في طاعة السلطان. فمالك لا يرى الخروج على الإمام الجائر كما يرى الخوارج، ولا يرى سل السيف في سبيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما يرى المعتزلة، ومالك يسد الذرائع إلى الفتنة، ويرى أن الدنيا يصلحها السلام.

وعندما سأله واحد من ولد عمر بن الخطاب عن بيعة أهل الحرمين للسائل بدلا من أبي جعفر، قال له: "أتدري ما الذي منع عمر بن عبد العزيز أن يولي رجلا صالحا بعده؟ قال: لا – قال مالك: كانت البيعة ليزيد بن عبد الملك فخاف عمر إن بايع لغيره أن يقوم ويقاتل الناس فيفسد ما لا يصلح".

ومالك يحمل لواء ابن عمر في "الاتباع" – روى البخاري عن ابن عمر أنه أتاه في فتنة ابن الزبير رجلان فقالا: إن الناس قد صنعوا، وأنت ابن عمر، وصاحب النبي ﷺ، فما يمنعك أن تخرج؟ فقال: "يمنعني أن الله حرم دم أخي" قالا أم ليقل: (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة)، قال: قاتلنا حتى لم تكن فتنة وكان الدين كله لله. وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة وحتى يكون الدين لغير الله.

ويقول ابن عمر كذلك عن الرسول عليه السلام: "السمع والطاعة على المسلم فيما أحب أو كره، ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة".

أخا الحبر أو البحر الذي كان يرجع إليه ابن عمر، نعني عبد الله بن عباس، فيقول عن النبي: "من رأى من أميره شيئا فكرهه فليصبر فإنه ليس أحد يفارق الجماعة شبرا فيموت إلا مات ميتة جاهلية".

وهذا الحديث يرويه البخاري عن ابن عباس. والبخاري – زعيم المحدثين – يرى عدم الخروج على أئمة الجور لأن الخروج أكثر ضررا، وأن هناك دائما فرصة ليصلح الوالي من شأنه.

قال عبادة بن الصامت "بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا، وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله، قال إلا أن تكون كفرا بواحا عندكم فيه من الله برهان".

ومالك يرى أن عليا، وسعدا، وابن مسعود، وأبا ذر، وعمارا قد أطاعوا عثمان، ولم يخرجوا عليه وإن ناقضوه، والبيعة إنما تكون على الطاعة، والفتنة أشد من القتل، وصلاح الأمر مأمول مع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والشورى، ومالك يجيز خلاف المفضول مع وجود من هو أفضل منه، ويشترط عليه أن يعدل.

فمالك يغير المنكر بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، لكنه لا يحمل السيف ولا يجمع لحمله الآخرين.

ذلك كله وأمر آخر، فمالك لم يكن متشيعا ولا فيه شبهة تشيع،وتلك كانت مشكلة الساعة – قضية الحرب والسلام للدولة – أو الموت والحياة لأبي جعفر، وأولاده، ولعل أبا جعفر قرب من مالك لبعد مالك من العلويين.

ومذهب مالك معروف مذاع على الملأ من سنين وربما عشرات سنين وهو حياد الفقيه مع ولائه للسلطة. سأله سائل عن جواز محاربة الخارجين على السلطان.

قال مالك: إن خرجوا على مثل عمر بن عبد العزيز فقاتلهم.

قال السائل: فإن لم يكونوا مثله؟

فأجاب: دعهم ينتقم الله من ظالم بظالم، ثم ينتقم من كليهما.

وعمر بن عبد العزيز لا يتكرر، فمالك يفتي بالحياد أبدا.. لأنه يأمل صلاح الحكام بالموعظة الحسنة، والذي لا يخرج مع محمد بن الحسن وله بيعة من الخليفة ذاته، لا يخرج مع أحد.

وليس تغيير النظم السياسية عمل الفقيه وإنما عمله بيان حدود الله وحقوق المسلمين.

وأبو حنيفة في العصر ذاته يعلم أبا يوسف معاملة السلطان فيقول: "وإذا رأيت من سلطانك ما لا يوافق العلم فاذكر ذلك مع طاعتك إياه فإن يده أقوى من يدك"، ثم يعلمه موعظة السلطان في يسر ولين.

* * *

أما إن هوى مالك مع بني أمية – فيدل عليه تاريخه كله حتى قبل أن يولد – من جده الذي شجع الشجاعة الكبرى بالمشاركة في دفن عثمان بليل وقتلته آخذون بخناق المدينة، وكان يدخل على عمر بن عبد العزيز، إلى عمه أبي سهيل الذي يتردد ذكره في الموطأ بما يشبه الافتخار، وكان يتردد على عمر بن عبد العزيز كذلك ويسأله في العلم.

يسأله عن القدرية – كما يروي الموطأ – فيرى أن يستتابوا، فيقول عمر هذا رأيي، ويعلق مالك في الموطأ بقوله "وهذا رأيي" فيلتقي رأيه – ورأي عمه – مع رأي خامس الراشدين وهو من بني مروان، من بني أمية.

ولقد كانت صلة مالك بعمر بن عبد العزيز، وفكره وورعه، مجدا لمالك، وكان يهتز طربا إذا ذكر كلماته.

وكما ارتبط فكر مالك بعمر، من كل وجه، ارتبطت آماله للدين والدنيا، بمثال آخر لبني مروان بالأندلس.. يوم سأل عن سيرة عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك، فقالوا له: إنه يأكل الشعير ويلبس الصوف، ويجاهد في سبيل الله، فقال: ليت أن الله زين حرمنا بمثله، وبلغ هذا المقال عبد الرحمن فسر له.

ولقد كانت حفاوة الأمويين وبخاصة هشام بن عبد الرحمن في الأندلس بمذهب مالك وفقهه بعض مظاهر الظفر للمذهب، في كل أوروبة، إذ تعصبوا له تعصبا بقى على الأجيال قرونا في أوروبة، بعد موت مالك، وتعصبوا له في حياة مالك – شعارا لاستقلالهم عن دار الخلافة ببغداد، وارتباطهم بدار الهجرة، وهي تحية فكرية تأسر القلوب وافدة من بعيد.

وإذا كان تأثره بابن شهاب ومروياته من أبرز المظاهر في علمه فتأثره بأبي بكر بن حزم عن طريق ولديه ظاهرة لا تقل بروزا، وكلا الرجلين، ابن شهاب، وابن حزم، كان أموي الهوى، الأول علمهم والثاني عمل لهم، وكان كلاهما مقدما في العلم والعمل بالمدينة، وهذان أساس فكر مالك.. وطريقته. كل ذلك إلى جوار ما يرويه مالك ويستمسك به من حديث النبي عن اختصاصه معاوية بسفرجلات يلقاه بهن في الجنة كما سنرى بعد. ومعاوية رأس الأسرة، وهو أساس الدولة، وهو كاتب النبي وصهره، وكان نابغة يسر وتسامح، ومالك هو اليسر والتسامح.

obeikandl.com

الفصل الثاني

الخلفاء في الحلقة

"ما رأيت في العلماء أهيب من مالك"

(هرون الرشيد)

طلب أبو جعفر إلى مالك أن يصحبه إلى عاصمته، وأجاب في طاعة للخليفة، واعتزاز بمنهجه، وبالمدينة، قال: إن تكن عزمة من أمير المؤمنين فلا سبيل إلى مخالفته، وإن تكن غير ذلك فقد قال رسول الله ﷺ: "والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون".

ولم يكن ولاء مالك للسلطة محل شك عند أبي جعفر، في حين كان يبادل غيره الرجاء الحذر، لكن مالكا نفسه لم يكن يأمن غدر أبي جعفر، أو هكذا يظهر من فهم المقاربين في العصر لمواقف أبي جعفر، وهم يروون عن مالك أنه قال:

لما ولي أبو جعفر الخلافة ورقى إليه الملاقون المشاءون بالنميمة.. فأتاني رسوله ليلا قال: أجب أمير المؤمنين... فلم أشك أنه القتل ففرغت من عهدي واغتسلت وتوضأت ولبست ثياب كفني، وتحنطت ثم نهضت فدخلت عليه في السرادق، والشمع يحترق بين يديه، وابن أبي ذؤيب، وابن سمعان، قاعدان.. فلما قعدت وسكن روعي رفعت رأسي أنظر تلقائي، فإذا أنا بواقف وعليه درع وبيده سيف.. ثم التفت إلينا قال: أما بعد معشر الفقهاء فقد بلغ أمير المؤمنين عندكم ما أخشن صدره وضاق به ذرعه، وكنتم أحق الناس بالكف من ألسنتكم.

قال مالك: يا أمير المؤمنين قال الله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين).

قال أبو جعفر: على ذلكم. أي الرجال أنا؟ أمن أئمة العدل أم من أئمة الجور؟

obeikandl.com

قال مالك قلت: يا أمير المؤمنين أنا متوسل إليك بالله تعالى وأتشفع إليك بمحمد ﷺ وبقرابتك منه إلا ما أعفيتني من الكلام في هذا. قال: قد أعفاك أمير المؤمنين. ثم التفت إلى ابن سمعان وقال: أيها القاضي.... أي الرجال أنا عندك؟ قال: أنت والله خير الرجال يا أمير المؤمنين تحج بيت الله الحرام، وتجاهد العدو وتؤمن السبل، ويأمن الضعيف بك أن يأكله القوي، فأنت خير الرجال وأعدل الأئمة، ثم التفت إلى ابن أبي ذؤيب وقال... أي الرجال أنا عندك؟ قال: أنت والله عندي شر الرجال. استأثرت بمال الله ورسوله وسهم ذوي القربى واليتامى والمساكين، وأهلكت الضعيف وأتعبت القوي وأمسكت أموالهم – فما حجتك غدا بين يدي الله؟ قال أبو جعفر ويحك ما تقول: قال: نعم قد رأيت أسيافا وإنما هو الموت ولا بد منه عاجله خير من آجله.

ثم خرجا وجلست.

قال: أجد رائحة الحنوط عليك! قلت أجل. لما نمي إليك عني ما نمى وجاءني رسولك ظننت أنه القتل.. قال: أو ما تراني أسعى في أود الإسلام وإعزاز الدين عائذا بالله... يا أبا عبد الله. انصرف إلى مصرك راشدا مهديا. وإن أحببت ما عندنا فنحن ممن لا يؤثر عليك أحدا. قلت إن يجبرني على ذلك أمير المؤمنين فسمعا وطاعة، وإن يخيرني أمير المؤمنين اخترت العافية قال: انصرف إلى أهلك معافى مكلوءا.

فلما أصبحنا أمر أبو جعفر بصرر دنانير في كل صرة خمسة آلاف دينار، ثم دعا برجل من شرطته فقال له: تدفع لكل رجل منهم صرة. أما مالك إن أخذها فبسبيله وإن ردها فلا جناح عليه، وإن أخذها ابن أبي ذؤيب، فائتني برأسه، وإن ردها عليك فبسبيله، وإن يكن ابن سمعان ردها فائتني برأسه وإن أخذها فهي عافيته.

قال مالك: فأما ابن سمعان فأخذها فسلم، وأما ابن أبي ذؤيب فردها فسلم، وأما أنا فكنت والله محتاجا إليها فأخذتها، ثم رحل أبو جعفر متوجها إلى العراق.

وذات يوم استدعى أبو جعفر مالكا وعبيد الله بن طاووس بن كيسان وكان عبيد الله من أحسن الناس، قال له: حدثني عن أبيك، وكان أبوه تلميذا لابن عباس – قال: حدثني أبي أن أشد الناس عذابا يوم القيامة رجل أشركه الله تعالى في سلطانه فأدخل عليه الجور في حكمه.. قال مالك: فضممت ثيابي خوفا من أن يصيبني دمه. ثم قال له المنصور: ناولني تلك الدواة، ثلاث مرات، فلم يفعل وقال أبو جعفر: لم لا تناولني؟ قال: أخاف أن تكتب بها معصية فأكون قد شاركتك فيها، قال: قوما عني، ذلك ما كنا نبغي. قال مالك فما زلت أعرف لابن طاووس فضله منذ ذلك اليوم.

* * *

obeikandl.com

مع العلويين:

لم يك هوى مالك مع العلويين، وكان ذلك حسبه عند أبي جعفر، وتاريخ مالك وفقهه دلائل على ذلك، فمالك لم يأخذ عن علماء الشيعة إلا ما أخذه عن جعفر الصادق، وعظم ما أخذه عن هذا الإمام سماحته وحياده ومسالمة السلطة والناس.

وولاء مالك لحلف أسلافه أو ولائهم لبني تيم يجمع جذوره كلها عند علمائهم أو زعمائهم الأعلين، وقد سلف علينا الأمر في بداية تعليمه وفي أساتذته منهم. أما زعماؤهم فمنهم طلحة بن عبيد الله[٦٦]، شهيد موقعة الجمل، وقد أظفر الله فيها أمير المؤمنين علي. وبنو تيم رهط أبي بكر، والشيعة تعنف العنف كله على أبي بكر وعمر، إلا فرقة زيد بن علي "زين العابدين" بن الحسين بن علي، فقد كان يحسن القول في الشيخين: "أبي بكر وعمر". كل أولئك ومالك فقيه المدينة – وفقه المدينة هو فقه أبي بكر وعمر وأبنائهما في المقام الأول، حتى أستاذه جعفر الصادق إمام الشيعة – ولده أبو بكر مرتين!

والمذهب الشيعي لا يقبل إلا السنة التي يرويها رجاله، وهو منحى مناقض تماما لمنهاج أهل المدينة، وكمثله في شدة المناقضة الرأي في الخلافة والخلفاء.

فإذا انضاف إلى ذلك صلة مالك بعثمان – وبني مروان، تاريخيا وعلميا ومن أجل السنة، فلا عجب أن ينسب راو إلى مالك أنه سئل عن خير الناس فقال: أبو بكر قيل فمن؟ قال: فعمر. وفي رواية أنه قيل فمن؟ قال: فعثمان، وفي رواية أخرى أنه قال: الخليفة المقتول ظلما عثمان. وفي رواية أخرى أن أحد السائلين مرة كان علويا فلما قال ذلك قام وقال: لا أجالسك أبدا، وأن مالكا قال له: فالخيار لك.

ولا تقف الروايات في هذا الاتجاه، فثمة روايات مبعدة منها: أنه بعد أن ذكر عثمان كان يقول: هنا وقف الناس.. بل إن منها هو أبعد: أنه كان يعلل ذلك بقوله: وليس من طلب الأمر كمن لم يطلبه.

ومناقشة هذه الروايات في صدد علي ﷺ مجملة أو مفصلة، ليست مناقشة لمالك، إلا أن تصح الروايات عنه، أو تسلم واحدة منها، فتجدر بالجدل.

---

(٦٦) يروي مالك في الحلقة ما يرويه عنه الشافعي في الرسالة ويرويه هو في الموطأ: عن عمه أبي سهيل عن جده عن طلحة بن عبيد الله.

ومن المسلمات أن بيعة عثمان كانت بترشيح عمر فبايعه المسلمون، وعلي في الطليعة، فهو اختيار إسلامي وشامل، فيه بطل الإسلام علي...

أما القول بأن من طلب الأمر ليس كمن لم يطلبه، فكلمة حق يراد بها باطل، فعلي قد طلب الأمر وحارب عليه قياما بواجب الدين. بعد إذ صار أميرا للمؤمنين، عليه أن يرجع إلى الجماعة من خرجوا عليها، وهم بنو أمية، الشاغبون عن غير فهم، أو عن طموح، أو عنهما معا، وطلحة والزبير بعد إذ بايعاه.

وأما قبل تمام البيعة لعثمان فقد كان الستة مرشحين وليسوا طالبين بالمعنى الذي يؤخذ على أحد، فإنما كانوا الستة الذين مات النبي وهو عنهم راض، وكلفهم عمر تكليفا بتنصيب خليفة للمسلمين من بينهم، وكانوا على الهدى، لا على الهوى، أجمعين.

ولئن صار الأمر إلى معاوية فإنما صار إليه بعد أن قتلت الفئة الباغية من الخوارج أمير المؤمنين، كما قتلت عمارا الفئة الباغية – كحديث الرسول – وكانت في جند معاوية في موقعة صفين.. أما وقد بويع لمعاوية ورضي الجمهور فهو خليفة بويع له، وكان حكمه، فيما عدا بعض اجتهاده بما صنعه لأجل دولته ووراثة الملك، حكما في مصلحة الأمة. ومعاوية هو معاوية: واحد من الكبار.. كاتب النبي وصهره، وعامل عمر وعثمان، رضي الله عنهما وعنه، وذلك كله لم يمنع الشاعر، أو غيره، أن يقول بحق: وأين معاوية من علي!

كل أولئك جدل في الروايات، أما جدال مالك نفسه ففي المسلم من فقهه، وفقهه هو فقه عمر بن عبد العزيز الذي يقول: "تلك دماء طهر الله منها يدي فلا أ؛ب أن أخضب بها لساني".

وإنما خضب بها لسانهم قوم عموا وصموا، سعيا وراء السلطة، ولي بعضهم الخلافة بانتسابهم إلى أهل البيت. ولقد تولى كبره من بينهم أبو جعفر في كتابه إلى محمد بن عبد الله بن الحسن:

"وأما ما فخرت به من علي وسابقته فقد حضرت رسول الله ﷺ الوفاة، فأمر غيره بالصلاة، ثم أخذ الناس رجلا بعد رجل فلم يأخذوه، وكانوا في الستة فتركوه كلهم دفعا له عنها، ولم يروا له حقا فيها، أما عبد الرحمن فقدم عليه عثمان، وقتل عثمان وهو له متهم، وقاتله طلحة والزبير، وأبي سعد بيعته، وأغلق دونه بابه، ثم بايع معاوية بعده، ثم طلبها بكل وجه وقاتل عليها وتفرق عنه أصحابه".

مع المهدي:

في سنة ١٥٨ حج أبو جعفر فمات عند بئر ميمون بمكة وتولى المهدي الخلافة (١٥٨ – ١٦٩).

ورث الهدي عن أبيه علمه، لكنه امتاز عنه بالسخاء والسماحة، وكان المهدي يزور مالكا، ويقعد في حلقته، ويبعث ولديه الهادي والرشيد "موسى وهرون" ليسمعا كتبه، وأمر واليه على المدينة كمثل ما أمره أبوه أن يكون مالك مرجعه.

وكان المنصور قد بعث إلى مالك يقول: "إن رأيت ريبة من عامل المدينة أو عامل مكة أو أحد عمال الحجاز في ذاتك، أو ذات غيرك، أو سوء سيرة في الرعية، فاكتب إلي، فأنت خليق أن تطاع ويسمع منك" فصار مالك بين الحين والحين يقضي ويفتي في المشاكل، ويجلس عند الوالي فيعرض عليه السجن فيقول: اقطع هذا واضرب هذا مائة. وهذا مائتين. واصلب هذا...

وصى مالك المهدي يوما فقال: "أوصيك بتقوى الله وحده والعطف على أهل بلد رسول الله ﷺ وجيرانه، فإنه بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: المدينة مهاجري، وبها قبري، وبها مبعثي، وأهلها جيراني، وحقيق على أمتي حفظي في جيراني فمن حفظهم كنت له شهيدا أو شفيعا يوم القيامة".

ووعظ والي المدينة بقوله: افتقد أمور الرعية فإنك مسئول عنهم قال عمر بن الخطاب: "والذي نفسي بيده لو هلك حمل بشاطئ العراق ضياعا لظننت أن الله يسألني عنه يوم القيامة". ووعظ واليا آخر بقوله: "فلتكن رحمنا الله وإياك فيما كتبته إليك وما استرعاك الله من رعيته فإنك المسئول عنهم صغيرهم وكبيرهم. وقد قال النبي ﷺ: "كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته".

وذكروا أن مالكا لما أخذ في تدوين كتبه ووضع علمه قدم عليه المهدي فأتاه بالموطأ، فأمر المهدي بانتساخه، وقرئ على مالك، فلما تمت قراءته أمر له بأربعة آلاف دينار ولابنه بألف.

وفي سنة ١٦٠ فرق المهدي في الحجاز ثلاثين مليون درهم ووزع مائة وخمسين ألف ثوب.

ولما قدم المدينة زائرا قبر النبي سنة ١٦٧ دخل عليه مالك فحضه على الإحسان إلى أهلها، وحدثه بفضلها وفضائلهم، وبقول رسول الله ﷺ: "أمرت بقرية تأكل القرى، يقولون يثرب، تنفي الناس كما ينفي الكير خبث الحديد". ثم قال يا أمير المؤمنين أفليس هؤلاء أهلا أن يعانوا على الصبر عليها، وعلى جوار رسول الله ﷺ؟

قال المهدي: والله يا أبا عبد الله حتى لا أجد إلا مثل هذا "ومد يده ليأخذ من الأرض شيئا فلم يجده" ثم قال صدقت وبررت وحضضت على الرشد فأنت أهل أن يطاع أمرك ويسمع قولك. وأمر بخمسة أبيات مال "والبيت عندهم خمسمائة ألف" وأمر مالكا أن يختار من تلامذته رجالا يقسمونها على أهل المدينة ويؤثرون أهل بيت رسول الله ﷺ وأهل بيت أبي بكر وعمر وعثمان، ثم أهل بيوت المهاجرين والأنصار الذين اتبعوهم بإحسان ففعل، فأغنى المدينة عامهم ذلك.

فإذا قدم مالك على المهدي لم يجلس بين الزحام بل ينادي يا أمير المؤمنين. أين يجلس شيخك مالك؟ فيقول المهدي: عندي يا أبا عبد الله فيتخطى الإمام الناس حتى يرفع المهدي ركبته اليمنى ويشركه في مجلسه، فإذا جاء الطعام طعم معه دون وضوء، لأن الوضوء قبل الأكل ليس من الأمر المعمول به في المدينة، فيقول أمير المؤمنين للغلام الذي جاء بالماء: ارفع يا غلام.

ويطلب مالك ماء فيجاء به في كوب له حلقة فضة، فيأبى أن يشرب، فجئ بكوز فخار فشرب، فأمر المهدي بالحلقة فخلعت.

ويجتهد المهدي ليقنعه بتقديم الموطأ ليكون مرجعا وحيدا للأمة فينهاه مالك فينتهي، كممثل أبيه، ويستمع إلى وصية مالك في البر بأهل الحجاز فيبلغ بها منتهى غايتها: أن يصهر إلى أهل المدينة ويتخذ لنفسه منها حرسا خاصا.

كانت صلة مالك بالولاة والخلفاء حماية للمدينة، من ظلم الولاة وإهمال الخلفاء، ولذلك لم يكف عن التدخل في أعمالهم. قيل له إنك تدخل على السلاطين وهم يظلمون ويجورون. قال: "رحمك الله. وأين التكلم بالحق".

وكان يحمل على نفسه وهو مريض أو ضعيف فيذهب إلى الأمراء في حين يدع الخروج إلى المسجد، ويقول لمن يسأله في ذلك: "أما تركي الخروج إلى المسجد فإني ضعفت عن ذلك وأما إتياني الأمراء فبالحمل مني على نفسي. فإنه ربما استشير بعض من لا يستشار".

ويقول عن الولاة: "لولا أني آتيهم ما رأيت للنبي ﷺ في هذه المدينة سنة معمولا بها".

والرسول يقول: "أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر".

ومالك رضي الله عنه يقول: "على كل مسلم جعل الله في صدره شيئا من العلم والفقه أن يدخل إلى كل سلطان يأمره بالخير وينهاه عن الشر، ويعظه حتى يتبين دخول العالم على غيره، لأن العالم إنما يدخل على السلطان لذلك فإذا كان فهو الفضل الذي لا بعده فضل".

* * *

ويمسي عمل مالك في إعظام مجلس العلم درسا للأمة، وللفقهاء والأمراء فيتعلمون أن الفقيه في حلقته فوق الأمير. قال قائل: كنت عند شريك فأتاه بعض أولاد المهدي فاستند إلى الحائط وسأله عن حديث فلم يلتفت إليه وأقبل علينا. ثم عاد الأمير لمثل ذلك وقال: أتستخف بأولاد الخلفاء؟ قال شريك: لا. ولكن العلم أجل عند الله تعالى من أن أضعه، فجثا على ركبتيه. قال شريك: هكذا يطلب العلم.

مع الرشيد:

خلف المهدي الهادي ثم الرشيد – في ليلة مات فيها خليفة هو الهادي وولد فيها خليفة هو المأمون وتولى فيها خليفة هو الرشيد.

وجلس الرشيد في حلقة مالك هو ووليا عهده الأمين والمأمون... واستفاد المأمون من مالك علما وسماحة. قيل إنه صعد المنبر يوما فأورد نحوا من ثلاثين حديثا بسندها. ثم نزل وقال لقاضيه يحيى بن أكثم: كيف رأيت مجلسنا؟ قال أجل مجلس. قال ما رأيت له حلاوة – إنما المجالس لأصحاب الحلق والمنابر.... وكان يقول عن نفسه لو عرف الناس حبي للعفو لتقربوا إلي بالجرائم ويصلي شكرا لله الذي رزقه العفو عن الفضل بين الربيع إذ كان معوانا لأخيه الذي حاربه "الأمين".

قال يحيى بن أكثم: "كان يحلم حتى يغيظنا" مر به ملاح فأشار وقال: أتظنون أن هذا نبيل وقد قتل أخاه الأمين؟ فلم يزد المأمون على أن ابتسم قائلا ما الحيلة حتى أنبل في عين هذا السيد الجليل؟

وكان الرشيد يستفتي مالكا مع أن بين يديه أبا يوسف ومحمدا صاحبي أبي حنيفة ومع جلال شأنهما عنده. سأله في يمين حنث فيها فقال مالك: عليك صيام ثلاثة أيام. قال الرشيد: يقول تعالى: (فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام) فهل أنا معدم؟ وكان الفقهاء الآخرون قد أجمعوا رأيهم على أن عليه عتق رقبة. قال مالك: يا أمير المؤمنين كل ما في يدك ليس لك. فعليك صيام ثلاثة أيام. فصام.

والتسبيب، على هذا الوجه – تذكير حسن التعبير للرشيد، للقصد في أموال المسلمين، وعطاياه أساطير التاريخ، وفيه في الوقت نفسه دروس للمفتين والواعظين ليبلغوا باللطف ما لا يبلغه العنف.

وينتقل الفقه الدقيق من مالك إلى تلاميذه فنرى يحيى بن يحيى في الأندلس يسير في الدرب، فيبعد، فيفتي ملكها إذ وقع على جارية له في رمضان، فأفطر، بأن يصوم ستين يوما متتابعة، ولم يفت بجواز العتق مع أن النص يجيزه للمفطر، فنقل يحيى الخيار بين العتق والصوم من المفطر إلى المفتي! فلما نوقش قال: لو فتحنا له باب العتق لفعل كل يوم وعتق.

ولا يقلل الفقه في الفتوى حدة النقد لها، قال قوم إنه استعمل المصلحة ضد صريح النص، وقال آخرون: إنه يسد أبواب الترخيص، ودفع الحرج أصل قوي قوة النص وأيدها آخرون بأنه أفتى بها تعزيرا للملك.

وفي جيل لاحق سيقول الخليفة الواثق (٢٣٢) لقاضيه أحمد بن أبي دؤاد: حنثت في يمين فما كفارتها؟ فيقول مائة ألف دينار فيقول الوزير ابن الزيات: ما سمعنا بهذا في الكفارات. ويقول القاضي: تلك كفارة مثله في بعد همته وجلالة قدره... ويقول الخليفة: تحمل إلى أبي عبد الله "ابن أبي دؤاد" يتصدق بها.

* * *

كان مالك ينصح الرشيد بمثل قوله له: "لقد بلغني أن عمر بن الخطاب كان في فضله وقدمه ينفخ لهم عام الرمادة تحت القدور حتى يخرج الدخان تحت لحيته وقد رضي الله منكم بدون هذا".

وأصدر الرشيد أمره من بداية عهده كأبيه وجده إلى واليه على المدينة، سنة ١٧٣، محمد بن عبد الله بن سليمان ألا يقطع أمرا دون مالك.

وقدم المدينة وال جديد وأتاه مالك فيمن أتى، فاستدناه وأكرمه، فلما نهض الإمام نهض الناس معه. قال الوالي: تنهض يا أبا عبد الله دون وصية؟ فقال له مالك – يعلمه الحلم والحيطة ويوصيه بالمشورة: إذا عرض لك أمر فيه كسر فاتئد. وعاير على نظرك بنظر غيرك، فإن العيار يذهب عيب الرأي كما تذهب النار عيب الذهب.

ومن قبل ذلك رأى مالك عبد الملك بن صالح والي المدينة يخرج إلى المسجد في رايات يوم العيد فنهاه لأنها ليست السنة. فانتهى.

لقد جاوز مالك الثمانين من حياة شهدت بضع عشرة خليفة، ودولتين عظيمتين، وواحدا من الخمسة الراشدين، وأمسى مفخرة للأمة والدولة طوال حكم الخلفاء الثلاثة الذين لم يتتابع مثلهم ثلاثة في أي دولة، وفيهم يقول الحافظ الذهبي: "وأين مثل أبي جعفر – على ظلم فيه – في شجاعته، وجرأته وكمال عقله وعلمه ومشاركته في الأدب، ووفور هيبته، ثم ابنه المهدي في سخائه وكثرة محاسبته وتتبعه لاستئصال الزنادقة، وولده الرشيد هرون في جهاده وحجه، وعظمة سلطانه – على لهو ولعب – لكن كان معظما حرمات الدين قوي المشاركة في العلم نبيل الرأي محبا للسنن".

أما الرشيد فيقول عن مالك: "ما رأيت في العلماء أهيب من مالك ولا أورع من الفضيل"(٦٧).

---

(٦٧) تاقت نفس الرشيد في إحدى حجاته إلى رؤية الفضل بن عياض (١٨٧) فقصد إليه مع عبد الله بن المبارك. قال عبد الله: إنه إن عرفك لم يأذن لك عليه، فقدمه له على أنه رجل من قريش له مكانة من العلم والفقه، فتحدثوا ساعة ثم قال هذا هارون الرشيد أمير المؤمنين فنظر إليه الفضل ساعة ثم قال: هذا الوجه الجميل يسأل غدا عن أمة محمد ويؤاخذ بها، ثم جعل يعظ الرشيد حتى بكى، وراح الفضل يذكر مثالب الرشيد ومثالب بيته فقال الرشيد: يا أبا الحسن أما لك ذنوب تخفا أن تهلك بها إن لم يغفرها الله؟ قال بلى. قال الرشيد: فما جعلك أحق مني بأن ترجو المغفرة؟ ومع ذلك فإني والله ما كنت لأخير بين شئ وبين الله إلا اخترت الله تعالى على ما سواه.

ثم قام الرشيد للخروج. فقال الفضل: يا أمير المؤمنين إني أخشى أن يكون العلم قد ضاع قبلك كما ضاع عندنا. قال الرشيد: أجل إنه ما قلت.

وقدم الرشيد العراق فكان أول ما ابتدأ فيه النظر أن كتب إلى الأمصار كلهم ليكتبوا: ١– من التزم الأذان في ألف من العطاء – ٢– ومن جمع القرآن وأقبل على طلب العلم، وعمر مجالس الأدب في ألفي دينار من العطاء – ٣– ومن جمع القرآن وروى الحديث وتفقه في العلم واستبحر في أربعة آلاف من العطاء. قال ابن المبارك فما رأيت عالما ولا قارئا ولا سابقا للخيرات ولا حافظا للحرمات في أيام بعد أيام الرسول عليه السلام

هكذا يتجلى لنا إمام المدينة، إماما للفكر في الأمة كلها، وحاكما على الحكم في المدينة نفسها، في عهود الخلفاء الثلاثة العظماء قرابة نصف قرن، نشر فيه ألوية السنن، ورفع رأس العلم فيوجه السلطة، وعلم فيه الولاة العدل، وحمى تراث المدينة المنورة وأهلها فجعلها منطلقا للفقه، وجاء أهل الحجاز بأرزاقهم التي بلغت أكثرها في عهدي المهدي والرشيد[٦٨] فكان حقيقا عليها وخليقا به أن يحمل اسمها فيقال له إمام دار الهجرة.

* * *

ولما كانت سنة ١٧٤ خرج الرشيد حاجا فقدم المدينة زائرا قبر النبي فسمع الموطأ من مالك ولم يتخلف أحد من فقهاء الحجاز والعراق والشام واليمن، إلا وقد حضر الموسم مع الرشيد وسمع من مالك موطأه.

قال مالك للرشيد في بعض مجالسه: "إن أباك يا أمير المؤمنين بعث إلي في هذا المجلس كما بعثت إلي. وحدثته بما حدثتك به في شأن أهل المدينة وما يصيرون إليه من البلاء وشدة الزمان وغلاء الأسعار صبرا على ذلك، واختيارا لجوار قبر الرسول ﷺ".

قال هرون: ذلك أبي وأنا ابنه وسوف أفعل ما فعل. وأمر لأهل المدينة بعشرة أبيت مال، أي ضعفي ما أمر به المهدي.

وأيام الخلفاء والصحابة أكثر منهم في زمن الرشيد. لقد كان الغلام يجمع القرآن وهو ابن ثمان سنين، ويستبحر في العلم والفقه ويروي الحديث ويجمع الدواوين ويناظر المعلمين وهو ابن إحدى عشرة سنة.

وهذا العهد وما بعده هو الذي يقول فيه "نيكلسون": وكان لانسباط رقعة الدولة العباسية ووفرة ثروتها ورواج تجارتها، أثر كبير في خلق نهضة ثقافية لم يشهدها الشرق من قبل، حتى لقد بدا الناس جميعا، من الخليفة إلى أقل أفراد العامة شأنا، طلابا للعلم، أو على الأقل أنصارا للأدب، وفي عهد الدولة العباسية كان الناس يجوبون ثلاث قارات سعيا وراء مواردالعلم والعرفان ليعودوا إلى بلادهم كالنحل يحملون الشهد إلى جموع التلاميذ المتفقهين، ثم يصنفون، بفضل ما بذلوه من جهد متصل هذه المصنفات، التي هي أشبه بدوائر المعارف والتي لها أكبر الفضل في إيصال العلوم المدنية إلينا، بصورة لم تكن متوقعة.

(٦٨) في سنة ١٨٦ حج الرشيد وعلق في الكعبة كتاب ولاية العهد لبنيه الثلاثة: الأمين فالمأمون فالمؤتمن وفرق ألف ألف دينار وخمسين ألف دينار.

قالوا: بعث الرشيد حاجبه الربيع بن يونس إلى مالك بكيس مختومة فيها ألف دينار ثم رجع إليه الربيع يقول: إن أمير المؤمنين يحب أن تعاد له إلى مدينة السلام، ويوجس خيفة مالك. ويقول: إن الكيس على حاله لم أحركه قال رسول الله ﷺ: "المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون".

وأرسل الرشيد إلى مالك: ما تقول في هذا المنبر، فإني أريد أن أنزع ما زاد فيه معاوية بن أبي سفيان، وأرده إلى الدرجات الثلاث التي كانت بعهد الرسول ﷺ. فقال مالك: لا تفعل يا أمير المؤمنين فإنه من عود ضعيف قد تخر منه المسامير، فإن نقضته تفكك وذهب أكثره، ومع هذا إنه يا أمير المؤمنين لو أعدته إلى ثلاث درجات لم آمن عليه أن ينتقل عن المدينة، يأتي بعدك خليفة فيقول أو يقال له: ينبغي لمنبر رسول الله ﷺ أن يكون معك حيث كنت، فإنما المنبر للخليفة، فينتقل كما انتقل من المدينة كل ما كان بها من آثار رسول الله ﷺ. ما أعلم أنه ترك له عليه الصلاة والسلام بها لا نعل، ولا شعر، ولا فراش، ولا عصا، ولا قدح ولا شئ مما كان هنا من آثاره إلا وقد انتقل... وأطاع الرشيد الإمام، وكان ذلك رحمة من الله للمدينة وأهلها، وتثبيتا لمنبر الرسول بين أظهرهم.

وكان الرشيد يصحب أبا يوسف، فسأله أن يجمع بينهما ليحدثه في الفقه وأنف مالك وتنزه عن ذلك. وقال لهارون: ها هنا من فتيان قريش من يبلغ حاجة أمير المؤمنين ويخصمه فيما يتكلم به ويذهب إليه، وسر الرشيد أن يضاف ذلك إلى قريش، والرشيد منها. فقال: من هو؟ قال: المغيرة بن عبد الرحمن المخزومي.

قالا لمغيرة لأبي يوسف: كلمني بما بدا لك أجاوبك.

قال أبو يوسف: يا أمير المؤمنين إن هؤلاء – يعني مالكا وأصحابه – يقضون بغير ما في كتاب الله. يقول الله عز وجل: (وأشهدوا ذوي عدل منكم)، ويقول: (واستشهدوا شهيدين من رجالكم) وهؤلاء يقضون باليمين مع الشاهد، ولا نسمع أن الله تعالى ذكر إلا شاهدين، أو أربعة شهداء، ولم يصح عن النبي ﷺ أنه قضى باليمين مع الشاهد.

قال المغيرة: قضى به النبي ﷺ وقضى به علي بالكوفة. قال أبو يوسف: أنا أكلمك بالقرآن وأنت تكلمني بأفعال الناس؟! تعرفني بهذا وبما قضى به علي وغيره؟

قال المغيرة: فأنت كافر بنبي قضى باليمين مع الشاهد، أو مؤمن به؟ فسكت أبو يوسف. وأمر الرشيد للمغيرة بألف دينار.

وربما عرض الرشيد ولاية قضاء المدينة على المغيرة في هذه المرة أو في زيارة تلت هذه الزيارة. ورفض المغيرة أن يلي القضاء، وجائزته أربعة آلاف دينار. قائلا: يا أمير المؤمنين يخنقني الله أحب إلي من القضاء. فقبل رفضه وأجازه بألفي دينار.

* * *

كان الرشيد يحج عاما ويغزو عاما، وربما روعه الخطر الداخلي أو الخارجي فطلب – خوف الفتنة – إلى مالك الامتناع عن حديث معاوية والسفرجل، ونسي الرشيد أنه يطلب الكف عن تدريس السنة إلى إمام السنة، وهيهات أن يمتنع.

وكأنما أنسى الشيطان الرشيد أن السنة وإعلانها والدفاع عنها مهمة حياة إمام دار الهجرة، فكيف إذا نهته السلطة أو الخليفة! إنه عندئذ يكون الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمته وليس مجرد علم أو تعليم.

قال يعيش بن هشام بن الخابور: كنت عند مالك إذ أتاه رسول الرشيد ينهاه أن يحدث بحديث معاوية في السفرجل. فتلا قوله تعالى: (إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات...) إلى آخر الآية ثم قال والله لأخبرن بها في هذه العرصة.

وحدث في جهارة ودوي:

حدثنا نافع عن ابن عمر قال: كنت عند رسول الله ﷺ فأهدي إليه السفرجل فأعطى أصحابه واحدة واحدة، وأعطى معاوية رضي الله عنه ثلاث سفرجلات وقال: القني بهن في الجنة.

ولو قد أصيب مالك كما أصيب قبل، لما ضروه إلا أذى، والأذى بعض أبواب المغفرة، والرسول يقول: "ما من مسلم يصيبه أذى إلا تحاتت عنه خطاياه، كما يتحات ورق الشجر".

ويقول للصحابة وهم يتدارسون العلم بمسجد قباء: "تعلموا ما شئتم أن تعلموا فلن يأجركم الله حتى تعملوا" وهو درس مطلوب أن يعلمه الإمام. وإنه لأبلغ تدريسا إذا جاهد الإمام أو أوذي في سبيل علمه. وما أجل الدروس إذا علمها للخليفة.

في هذه الواقعة الأخيرة، يمكن تحصيل حياة مالك ومهمته في ثلاثة أرباع قرن في المدينة وفي الدنيا، لقد كان "حارس القلعة" التي يحتمي بها المسلمون أو "حامي المنارة" التي يستضيئون بها على مدار القرون.

obeikandl.com